خواطرُ إيمانيةٌ حول ليلةِ القدرِ

لقد خلقَ اللهُ الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ ، وكرَّمه أعظمَ تكريمٍ ، سخَّر له الكونَ تسخيرَ تعريفٍ وتفضيلٍ ، وَهَبَه نعمةَ العقلَ ، وفطرَه فطرةً تنزعُ إلى الكمالِ ، وأودع فيه الشهواتِ ليرقى بها صابراً وشاكراً إلى ربِّ الأرضِ والسماواتِ ، ومنَحه حريةَ الاختيارِ ليثمِّنَ عملَه ، وأنزلَ له كتاباً أحلَّ له فيه الطيباتِ ، وحرَّمَ عليه الخبائثَ ، كلُّ ذلك ليعرفَ ربَّه فيعبدَه ، ويسعدَ بعبادتِه في الدنيا والآخرةِ .

إنَّ الحقَّ لابسَ خلْقَ السماواتِ والأرضِ ، والحقُّ هو الشيءُ الثابتُ والهادفُ ، بخلافِ الباطلِ ، الذي هو الشيءُ الزائلُ والعابثُ ، وإنّ الحقَّ دائرةٌ تتقاطعُ فيها أربعةُ خطوطٍ : خطُّ النقلِ الصحيحِ ، وخطُّ العقلِ الصريحِ ، وخطُّ الفطرةِ السليمةِ ، وخطُّ الواقعِ الموضوعيِّ .

فالنقلُ الصحيحُ كلامُه سبحانه وتعالى ، مع بيانِ المعصومِ ﷺ .

والعقلُ الصريحُ ميزانٌ أودعه اللهُ في الإنسانِ ، ليتعرَّفَ مِن خلالِه إلى الواحدِ الديّانِ ، قال تعالى :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾ [الرحمن : ٧] .

والفطرةُ ميزانٌ نفسيٌّ متطابقٌ مع منهجِ اللهِ ، وهو مركوزٌ في أصلِ كيانِ

الإنسانِ ، ليكتشفَ ذاتياً مِن خلالِه أو من خلالِها خطأه ، قال تعالى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾ [الشمس : ٧ـ٨] .

والواقعُ خَلْقُ اللهِ ، تحكمُه القوانينُ التي قنَّنها اللهُ جلّ جلالُه ، فإذا كانت هذه الفروعُ الأربعةُ مِن أصلٍ واحدٍ فهي متطابقةٌ فيما بينها .

إنّ ليلةَ القدرِ أفضلُ ليالي العمرِ ، لقول الله عز وجل :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ ﴾ [القدر : ١ ـ٣] ، أي : هي خيرٌ من ألفِ شهرٍ ، أو هي خيرٌ من ثلاثةٍ وثمانين عاماً ، وهو عمرٌ مديدٌ يعبدُ فيه الإنسان ربَّه تقليداً من دون علم ، أو يعمل فيه عملاً عشوائياً دونَ انضباطٍ ولا إخلاصٍ ، لذلك قال ﷺ : « فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ[١] ، لأنّ مقاومةَ العابدِ هشَّةٌ ، فهو يضعُفُ أمامَ شهواتِه إذْ يخرِق استقامتَه لأدنى ضغطٍ ، أو لأقلِّ إغراءٍ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ[٢] .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، مَا أَقُولُ فِيهَا ؟ قَالَ : قُولِي : « اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي »[٣] .

---

(١) الترمذي (٢٦٨١) ، ابن ماجه (٢٢٢) ، واللفظ له ، عن ابن عباس .
(٢) البخاري (١٨٠٢) ، مسلم (٧٦٠) .
(٣) الترمذي (٣٥١٣) ، ابن ماجه (٣٨٥٠) ، النسائي في السنن الكبرى (٧٧١٢) ، أحمد (٢٥٤٢٣) .

تنطلقُ الخواطرُ الإيمانيةُ حولَ ليلةِ القدرِ مِن قولِه تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر : ٦٧] . وتنطلقُ الخواطرُ الإيمانيةُ أيضاً من الآياتِ الأولى التي نَزلَتْ أوَّلَ ما نَزلَتْ من القرآنِ الكريمِ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق : ١ـ ٥] . إذاً ينبغي أنْ نقدِّرَ اللهَ حقَّ قَدْرِه في ليلةِ القدرِ ، وذلك عن طريق العلم ، وقد عبَّرَ اللهُ جلّ جلالُه عن العلمِ بمفتاحِه ، وهو فعل ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ ، وفي اللغةِ أنّ الفعلَ إذا حُذِفَ مفعولُه أُطلِقَ معناه ، فنقرأُ في كتابِ الله ، أو في بيانِ المعصومِ ﷺ ، أو في كتابِ الكونِ ، فالكونُ قرآنٌ صامتٌ ، والقرآنُ كونٌ ناطقٌ ، والنبيُّ ﷺ قرآنٌ يمشي ، لذلك قال الله تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ ، وهذه أوّلُ آيةٍ نزلتْ في القرآنِ الكريمِ .

ولكنّ الأصلَ الأولَ في هذه القراءةِ : أن تكونَ قراءةً **إيمانيةً** ، تنتهي إلى الإيمانِ باللهِ موجوداً وواحداً ، وكاملاً خالقاً ، ومربِّياً ومسيِّرًا ، قال تعالى :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ .

وهذه القراءةُ مقدورٌ عليها ، بدليلِ أنها تنطلقُ مِن أقربِ شيءٍ إلى الإنسانِ ، من نفسِه التي بين جَنبيه ، قال تعالى :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذريات : ٢١] .

والأصلُ الثاني لهذه القراءةِ : أنْ تكونَ قراءةَ شكرٍ وعرفانٍ ، أساسُها شكرُ المنعِم على نعمةِ الإيجادِ ، ونعمةِ الإمدادِ ، ونعمةِ الهدى والرشادِ ، لقد خَلقَ اللهُ الإنسانَ ليُسعِدَه في الدنيا والآخرة .

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ [هود : ١١٩] .

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ﴾ ، قراءةً إيمانيةً ، وقراءةَ شكرٍ وعرفانٍ .

لقد سخّرَ اللهُ الكونَ لهذا الإنسانِ تسخيرَ تعريفٍ وتكريمٍ ، أمّا تسخيرُ التعريفِ فكلُّ ما في السماواتِ وما في الأرضِ ينطقُ بوجودِ اللهِ ووحدانيتِه وكمالِه ، ويشفُّ عن أسمائِه الحسنى وصفاتِه الفضلى ، وهو مجالٌ رَحْبٌ للتفكُّرِ في خَلقِ السماواتِ الأرضِ ، قال تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ . [الزمر : ٦٧] . أي : إنّ تقديرَ اللهِ حقَّ قَدْرِه طريقُه التفكُّرُ في خَلقِ السماواتِ والأرضِ ، لذلك قال تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية : ١٣] . هذا تسخيرُ التعريفِ ، فماذا عن تسخير التكريمِ ؟

أمّا تسخيرُ التكريمِ فقد قال تعالى :

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

إنّ واجبَ الإنسانِ تجاهَ تسخيرِ التعريفِ أنْ يؤمنَ ، وإنّ واجبَه تجاهَ تسخيرِ التكريمِ أنْ يشكرَ ، فالإنسانُ إذا آمنَ وشكرَ فقد حقَّقَ الغايةَ مِن وجودِه ، لذلك يتوقَّفُ التأديبُ والمعالجةُ ، يقولُ اللهُ عز وجل :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء : ١٤٧] .

فقد حقَّقتم الهدفَ مِن وجودِكمْ ، إذاً يتوقَّفُ العلاجُ ، ويتوقَّفُ التأديبُ .

أما قوله تعالى :

﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرحمن : ٤] . وقوله سبحانه :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ﴾ ففي هذه الكلماتِ إشارةٌ رائعةٌ إلى نعمةِ البيانِ ، إلى نعمةٍ انفردَ بها الإنسانُ الذي ميَّزهُ اللهُ بها ، حيث يقولُ : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرحمن : ١ـ٤] .

ففي جانبِ البيانِ الشفهيّ يعبِّرُ الإنسانُ عن أفكارِه وعن مشاعرِه ، ويتعرَّفُ إلى أفكارِ الآخرين ومشاعرِهم ، فيتعلَّمُ بالبيانِ ويعلِّمُ .

وفي جانبِه الكتابيِّ تنتقلُ المعارفُ من إنسانٍ إلى آخرَ دونَ اتصالٍ ، ومِن جيلٍ إلى جيلٍ دونَ مجاورةٍ ، ومن أُمّةٍ إلى أُمّةٍ دونَ معاصرةٍ ، ثم تنتقلُ المعارفُ وتتراكمُ إلى خزائنِ العلمِ للإنسانيةِ كلِّها ، هذا بفضل : ﴿ عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾ .

أمّا الأصلُ الثالثُ لهذه القراءةِ : فهي قراءةُ الوحيِ والتلقِّي ، فمعرفةُ

طرفٍ من حقيقةِ الذاتِ الإلهيّةِ ، وكمالِها المطلقِ ، ومعرفةُ الماضي السحيقِ ، والمستقبلِ البعيدِ ، ومعرفةُ حقيقةِ الحياةِ الدنيا ، ومعرفةُ حقيقةِ الحياةِ الآخرةِ ، ومعرفةُ حقيقةِ الإنسانِ وسرِّ وجودِه ، وغايةِ وجودِه ، ومعرفةُ حقيقةِ النبوّاتِ والرسالاتِ ، ومعرفةُ حقيقةِ المنهجِ ودقائقِه ، ومفرداتِ التكاليفِ ، وتفاصيلِها ، هذا كلُّه يُؤخَذُ من الوحيين الكتابِ والسنةِ ، وهذا مما يُستنبطُ من قولِه تعالى :

﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ ، وقوله عزوجل :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ .

ولكنّ هذا الكلامَ لا يعني أنّ المسلمين اليومَ يقرؤون هذه القراءاتِ الثلاثَ ، ولو فعلوا ذلك لما استطاعَ أحدٌ أنْ ينالَ منهم ، ولكن هذا من قَبيلِ ما ينبغي أنْ يكونُ ، لا ما هو كائنٌ .

أمّا إذا قرأ الإنسانُ ما في الكونِ قراءةً نفعيةً ليس غير ، وابتعدَ عن هذه القراءاتِ الثلاثِ كان الطغيانُ ، وكان العدوانُ ، قال تعالى بعد هذه الآياتِ :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق : ٦ـ٧] .

وهذا طغيانُ العلمِ الذي يقودُ الإنسانَ الذي قرأَ هذه القراءةَ النفعيّةَ بعيداً عن الإيمانِ والعرفانِ ، يقوده هذا العلمُ إلى القوةِ ، فيبني مجْدَه على أنقاضِ الآخرين ، ويبني غناه على فَقرِهم ، ويبني قوّتَه على ضَعفِهم ، ويبني أَمْنَه على خَوفِهم ، ويبني عِزّه على ذلِّهم ، ويبني حياتَه على

موتِهم ، وبهذا يكونُ قد طغى بالعلمِ ، واستخدم العلمَ لغيرِ ما أُريدَ منه .

وقد ضربَ اللهُ لنا مثلاً في القرآنِ الكريمِ قومَ عادٍ كأنموذجٍ متكرِّرٍ لهذا الإنسانِ الذي قرأ قراءةً نفعيةً ، فطغى وبغى ، ونسيَ المبتدا والمنتهى ، ونسي الجبّارَ الأعلى .

إنّ عادًا تفوقّتْ في شتى الميادينِ ، قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ ﴾ [الفجر : ٦ـ٨] .

وعادٌ تفوقَّت بالبناءِ والعمرانِ ، والحصونِ والمنشآتِ ، قال تعالى :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ ﴾ [الشعراء : ١٢٩] . وعادٌ تفوَّقتْ بالقوّةِ العسكريّةِ ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠ ﴾ [الشعراء : ١٣٠] .

وعادٌ تفوقَّت بالناحيةِ العلميّةِ ، قال تعالى :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨ ﴾ [العنكبوت : ٣٨] .

ولم يكن فوقَ عادٍ إلا اللهُ سبحانه ، بدليلِ أنّ اللهَ ما أهلكَ قوماً إلاّ وذكّرهم أنه أهلكَ مَن هو أشدُّ منه قوةً ، إلا عاداً حين أهلكها قال :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ ﴾ [فصلت : ١٥] .

وعادٌ بسببِ تفوُّقِها وبُعْدِها عن اللهِ ، وقراءتِها لِما في الكونِ قراءةً نفعيّةً تكبَّرتْ بغيرِ حقٍّ ، واستعلَتْ ، وتغطرسَتْ ، وبَغَتْ ، لا في بلدِها فحسْب ، بل في كلِّ البلادِ ، قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ ﴾ ، وفي الأرضِ كلِّها ، قال تعالى :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾

[فصلت : ١٥]

فماذا كانت محصِّلةُ هذا التفوّقِ الماديِّ ، لقد طَغَوْا في البلادِ ، والطغيانُ مجاوزةُ الحدِّ بالعدوانِ ، ولم يقل : طَغَوا في بلدهم ، بل قال : ﴿ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ ﴾ ، في البلادِ كلِّها ، ليصفَ طغيانَهم بالشمولِ ، وأنهم أَكْثروا فيها الفسادَ ، ولم يقلْ : أفْسدوا ، ليبيِّنَ أنّ إفسادَهم قد عمَّ الأرضَ .

والحديثُ عن مصيرِ عادٍ في القرآنِ لا يخصُّ عاداً الأولى ، بل يتّجهُ إلى كلِّ قومٍ سلكوا مسلكَ عادٍ ، فقومُ عادٍ أنموذجٌ متكرِّرٌ ، بدليل أنّ اللهَ تعالى يقولُ :

﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النجم : ٥٠] ، وهذا يعني فيما يعني أنّ هناك عاداً ثانيةً ، أو انتظروا عاداً ثانيةً .

لقد كان تأديبُهم بالأعاصيرِ التي تدمِّرُ كلَّ شيءٍ أَتَتْ عليه .

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الحاقة ٦ـ ٧] .

فماذا كانت النتيجة ؟

﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر :١٣ـ ١٤] .

أيْ : بالمرصادِ لكلِّ مَن يكونُ على شاكلةِ عادٍ مِنَ أممِ الأرضِ .

* * *

إنّ ليلةَ القدرِ تعني فيما تعني أنْ نعرفَ اللهَ ، ومعرفةُ اللهِ أصلُ الدينِ ، وأنْ نقدره حقَّ قدْرِه عن طريقِ العلمِ به ، من خلالِ آياتِه الكونيةِ والتكوينيةِ والقرآنيةِ ، أيْ : مِن خلالِ خَلْقِه وفِعلِه وكلامِه .

والعلمُ كما يرى بعضُ العلماءِ علمٌ باللهِ ، وعلمٌ بأمرِه ، وعلمٌ بخَلقِه ، أو علمٌ بالحقيقةِ ، وعلمٌ بالشريعةِ ، وعلمٌ بالخليقةِ ، والعلمُ باللهِ أصلُ الدِّينِ ، والعلمُ بأمرِه أصلُ العبادةِ ، والعلمُ بخَلقِه أصلُ صلاحِ الدنيا .

لقد دعا الإسلامُ إلى العلمِ باللهِ من خلالِ التفكُّرِ في خَلقِ السماواتِ والأرضِ ، ففي صحيحِ ابن حبان عن عائشةَ رضي اللهُ عنها قالت : « لَمَّا كَانَتْ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي أَتَانِي النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ : يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ، قَالَتْ : فَقُلْتُ : وَاللهِ إِنِّي لأُحِبُّ قُرْبَكَ ، وَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ تَعْبُدَ رَبَّكَ ، قَالَتْ : فَقَامَ فَتَطَهَّرَ ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي ، فَبَكَى حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ ، ثُمَّ سَجَدَ فَبَكَى حَتَّى بَلَّ الأَرْضَ ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَى جَنْبِهِ فَبَكَى ، حَتَّى إِذَا أَتَى بِلاَلٌ يُؤْذِنُهُ بِصَلاَةِ الصُّبْحِ ، قَالَتْ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا يُبْكِيكَ ؟ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ ، وَمَا تَأَخَّرَ ؟ فَقَالَ : وَيْحَكَ يَا بِلاَلُ ، وَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَبْكِيَ وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ »[1] .

ننطلقُ في ليلةِ القدرِ من السعيِ إلى تقديرِ اللهِ حقَّ قدْرِه ، فنتفكّرُ في ملكوتِ السماءِ ، فإذَا علِمْنا أنّ حجمَ الأرضِ يساوي مليونَ مليون كيلومتر مكعبٍ ، وأنّ الشمسَ تكبُر الأرضَ بمليون وثلاثمئةِ ألفِ مرّةٍ ، وأنّ

(١) صحيح ابن حبان (٦٢٠) .

المسافةَ بين الأرضِ والشمسِ هي ١٥٦ مليون كيلومتر ، وأنّ نجماً في برجِ العقربِ صغيراً متألّقاً أحمرَ اللونِ اسمُه قلبُ العقربِ يتّسع للأرضِ والشمسِ مع المسافةِ بينهما .

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافر : ٦٤] .

وأنّ نجماً آخرَ اسمُه منكبُ الجوزاءِ يزيد حجمه على حجمِ الشمسِ بمئةِ مليونِ مرةٍ ، لقد صدقَ اللهُ العظيمُ إذ يقولُ :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الذريات : ٤٧] .

إنّ الضوءَ يقطعُ في الثانيةِ الواحدةِ ٣٠٠ ألف كيلومترٍ ، إذاً هو يقطعُ في السنةِ عشرةَ آلافِ مليارٍ من الكليومترات ، فإذَا علِمْنا أنّ القمرَ يبعُد عنا ثانيةً ضوئيةً واحدةً ، وأنّ الشمسَ تبعُد عنا ثماني دقائقَ ضوئيةٍ ، وأنّ المجوعةَ الشمسيةَ بأكملِها لا يزيد قطرُها على ثلاث عشرةَ ساعةً ضوئيةً ، وأنّ أقربَ نجمٍ إلى الأرضِ يبعد عنا أربعَ سنواتٍ ضوئيةٍ ، ولكي نعلمَ ماذا تعني أربعُ سنواتٍ ضوئيةٍ نقول : لو اتّجهْنا إلى هذا النجمِ الذي هو أقربُ نجمٍ إلى الأرضِ بمركبةٍ أرضيةٍ لاستغرقتِ الرحلةُ خمسين مليونَ عامٍ ، متى نصلُ إلى نجمِ القطبِ الذي يبعدُ عنا أربعةَ آلافِ سنةٍ ضوئيةٍ ؟ ومتى نصلُ إلى المرأةِ المسلسلةِ ، وهي سديمٌ تبعدُ عنا مليوني سنةٍ ضوئيةٍ ؟ ومتى نصلُ إلى مجرةٍ اكتُشِفَتْ حديثاً تبعدُ عنا عشرين مليار سنةٍ ضوئيةٍ ، لقد صدقَ اللهُ العظيمُ إذ يقولُ :

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

[الواقعة : ٧٥ـ٧٦] .

هذا الإلهُ العظيمُ يُعصَى ؟! هذا الإلهُ العظيمُ ألاَ يُخطَبُ ودُّه ؟

فلـو شـاهـدتْ عينـاك مـن حُسنـ ـنا الذي رأوه لمَا ولّيتَ عنا لغيرنا
ولو سمعت أذناك حسنَ خطابِنا خلعتَ عنك ثيابَ العُجبِ وجئتَنا
و لو ذقتَ من طعمِ المحبةِ ذرّةً عذرتَ الذي أضحى قتيلاً بحبّنا
ولو نسمت من قُربنا لك نسمةٌ لمُتَّ غـريبـاً واشتيـاقـاً لقــربنـا
لـو لاح مِـن أنــوارِنـا لـك لائـحٌ تركتَ جميعَ الكائنات لأجـلنا
فما حبُّنا سهلٌ وكلٌّ من ادّعى سهولتَه قلنـــا لـــه : قـــد جَهِلْـتَنـــا

ننطلقُ في ليلةِ القدرِ مِن السعيِ إلى تقديرِ اللهِ حقَّ قدرِه ، فنتفكّر في ملكوتِ الأرضِ .

من آياتِ اللهِ الدالّةِ على عظمتِه **البعوضةُ** ، قال تعالى في القرآن الكريم :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة : ٢٦] .

بعد اكتشافِ المجاهرِ الإلكترونيةِ تبيَّنَ أنّ رأسَ البعوضةِ فيه مئةُ عينٍ ، وفي فمِها ثمان وأربعون سناً ، وفي صدرها ثلاثةُ قلوب ، قلبٌ مركزيٌّ ، قلبٌ لكلّ جناحٍ ، وفي كلِّ قلبٍ أُذَيْنَانِ ، وبُطَيْنَان ، ودسّامان .

وتملكُ البعوضةُ أجهزةً لا تملكها الطائراتُ ، تملكُ جهازَ رادارٍ سمّاه العلماءُ جهازَ استقبالٍ حراريًّا ، فهي لا ترى الأشياءَ بأشكالها ، ولا بأحجامها ، ولا بألوانها ، ولكن تراها بحرارتِها ، فإذا كانت في غرفةٍ مظلمةٍ لا ترى إلاّ النائمَ ، تتّجه إليه ، لكن ما كلُّ دمٍ يناسبُها ، معها جهازُ تحليلٍ للدمِ ، فقد ينامُ أخوانِ على سريرٍ واحدٍ ، يستيقظُ الأولُ وقد مُلِئَ بلسعِ البعوضِ ، والثاني معافًى لم يُصَبْ بشيءٍ .

ثم إنّ البعوضةَ تملكُ جهازَ تخديرٍ ، فإذا وقفتْ على جسمِ النائمِ ربّما قتَلَها ، فتخدِّره أوّلاً ، وحينما يشعرُ بلدغِها تكونُ في جوِ الغرفةِ تضحكُ عليه .

ولأنّ لُزُوجَةَ الدمِ لا يمكنُ أنْ تسريَ في خرطومِها الدقيقِ فهي تملكُ جهازَ تمييعٍ ، هذا خَلْقُ الله .

أمّا خرطومُها فبعدَ تكبيرِه تبيَّنَ أنّ فيه ست سكاكين ، أربعُ سكاكين لإحداثِ جُرحٍ مربّعٍ ، وسكينتان تلتئمان على شكلِ أنبوبٍ لامتصاصِ الدمِ .

وفي أرجلِ البعوضةِ مخالبُ إن وقفتْ على سطحِ خشنٍ ، ومحاجمُ إنْ وقفتْ على سطحٍ أملسَ .

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ .

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان : ١١] .

قد تقرأُ آيةً في القرآنِ أربعين عاماً ، وتظنّ أنه ليس فيها هذه المعاني الدقيقةُ ، ثمّ تكتشفُ أنه كلما قرأتَ القرآنَ ازددتَ عِلْماً باللهِ عز وجل ، وأنّ هذا القرآنَ لا يبلَى على كثرةِ الردِّ ، فكلّما قرأتَه وجدتَ فيه من المعاني ما لا يُتَصَوَّرُ .

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ عَلَّمَ
ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ
ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن
كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ

خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾

[العلق : ١ـ١٩]

قال ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ هذه السورةِ : « فأوّلُ شيءٍ نزلَ من القرآنِ هذه الآياتُ الكريماتُ المباركاتُ ، وهنّ أوّلُ رحمةٍ رحمَ اللهُ بها العبادَ ، وأوّلُ نعمةٍ أنعمَ اللهُ بها عليهم ، وفيها التنبيهُ على ابتداءِ خَلْقِ الإنسانِ من عَلَقَةٍ ، وأنّ من كرَمِه تعالى أنْ علّمَ الإنسانَ ما لم يعلمْ ، فشرّفه ، وكرّمه بالعلمِ ، وهو القَدْرُ الذي امتازَ به أبو البريةِ آدمُ على الملائكةِ ، والعلمُ تارةً يكونُ في اللسانِ ، وتارةً يكونُ في الكتابةِ بالبنانِ ، ذهنيّ ، ولفظيّ ، ورسميّ ، والرسميُّ يستلزمُهما من غيرِ عكسٍ ، فلهذا قال : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ .

يخبرُ تعالى عن الإنسانِ أنه ذو فرحٍ وأَشَرٍ ، وبَطَرٍ وطغيانٍ إذا رأى نفسَه قد استغنى ، وكثُرَ مالُه ، وتوعّدَه ، ووعظَه ، فقال : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ ، أي : إلى اللهِ المصيرُ والمرجعُ ، وسيحاسِبُك على مالِك ، مِن أين جمعتَه ؟ وفيمَ صرفتَه ؟

ثم قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴾ ، نَزلتْ في أبي جهلٍ ـ لعنَه اللهُ ـ توعَّدَ النبيَّ (على الصلاةِ عند البيتِ ، فوعظه تعالى بالتي هي أحسنُ أوّلاً ، فقال : ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ ، أيْ : فما ظنُّك إنْ كان هذا الذي تنهاه على الطريقِ المستقيمةِ في فعْلِه ، أو أمَرَ بالتقوى بقولهِ ، وأنت تزجرُه ، وتتوعّدُه على صَلاتِه ، ولهذا قال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾ ، أيْ : أمَا عَلِمَ هذا الناهِي لهذا المهتدي أنّ اللهَ يراه ، ويسمعُ كلامَه ، وسيجازيه على فعلِه أتمَّ الجزاءِ ؟ ثم قال تعالى متوعِّدا ومتهدِّدًا : ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾

أيْ : لئنْ لم يرجعْ عمّا هو فيه من الشقاقِ والعنادِ ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ ، أي لَنَسِمَنَّهَا سوادًا يومَ القيامةِ ، ثم قال : ﴿نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ﴾ ، يعني أنّ ناصيةَ أبي جهلٍ كاذبةٌ في مقالها ، خاطئةٌ في فعالِها ، ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ﴾ ، أي : قومَه وعشيرتَه ، أي : لِيَدْعُهُمْ يستنصر بهم ، ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ ، وهم ملائكةُ العذابِ ، حتى يعلمَ مَن يغلبُ ، أَحِزْبُنَا أو حزبُه . . . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ : لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ لأَطَأَنَّ عَلَى عُنُقِهِ ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ (فَقَالَ : « لَوْ فَعَلَهُ لأَخَذَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ » . . . وقولُه تعالى : ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ﴾ ، يعني يا محمّدُ لا تطِعْه فيما ينهاك عنه من المداومةِ على العبادةِ وكثرتِها ، وصلِّ حيث شئتَ ، ولا تبالِه ، فإنّ اللهَ حافظُك وناصرُك ، وهو يعصمُك من الناسِ ، ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾[1] .

قال ابنُ القيِّمِ : « إنّ أوّلَ سورةٍ أنزلها اللهُ في كتابه سورةُ القلمِ ، فذكَرَ فيها ما مَنَّ به على الإنسان مِن تعليمِه ما لم يعلمْ ، فذَكَر فيها فضلَه بتعليمِه ، وتفضيلَه الإنسانَ بما علّمه إيّاه ، وذلك يدلُّ على شرفِ التعليمِ والعلمِ ، فقال تعالى : ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ ، فافتتحَ السورةَ بالأمرِ بالقراءةِ الناشئةِ عن العلمِ ، وذكَرَ خَلْقَه خصوصًا وعمومًا ، فقال : ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ ، وخصَّ الإنسانَ مِن بين المخلوقاتِ لِمَا أودَعه مِن عجائبِه ، وآياتِه الدالّةِ على ربوبيتِه وقدرتِه ، وعلمِه وحكمتِه ، وكمالِ رحمته ، وأنه لا إلهَ غيرُه ، ولا ربَّ سواه ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٢٨ ـ ٥٣٠) ، بتصرف يسير .

وذكَر هنا مبدأَ خَلْقِه مِن عَلَقٍ ، لكونِ العلقةِ مبدأَ الأطوارِ التي انتقلتْ إليها النطفةُ ، فهي مبدأُ تعلُّقِ التخليقِ ، ثم أعاد الأمرَ بالقراءةِ مخبرًا عن نفسِه بأنه الأكرمُ ، وهو الأفعلُ مِنَ الكَرَم ، وهو كثرةُ الخيرِ ، ولا أحدَ أولى بذلك منه سبحانه ، فإنّ الخيرَ كلَّه بيديه ، والخيرَ كلّه منه ، والنعمَ كلَّها هو مُولِيها ، والكمالَ كلَّه ، والمجدَ كلَّه له ، فهو الأكرمُ حقًّا ، ثم ذكرَ تعليمَه عمومًا وخصوصًا ، فقال : ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ ، فهذا يدخلُ فيه تعليمُ الملائكةِ والناسِ ، ثم ذكرَ تعليمَ الإنسانِ خصوصًا ، فقال : ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ ، فاشتملتْ هذه الكلماتُ على أنه معطِي الموجوداتِ كلِّها بجميعِ أقسامِها ، فإنّ الوجودَ له مراتبُ أربعة :

إحداها : مرتبتُها الخارجيةُ المدلولُ عليها بقولِه : ﴿خُلِقَ ۝٥﴾

المرتبةُ الثانيةُ : الذهنيةُ المدلولُ عليها بقولِه : ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

المرتبةُ الثالثةُ والرابعةُ : اللفظيةُ والخطّيّةُ ، فالخطّيّةُ مصرَّحٌ بها في قوله : ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ ، واللفظيةُ من لوازمِ التعليمِ بالقلمِ ، فإنّ الكتابةَ فرعُ النطقِ ، والنطقُ فرعُ التصوُّرِ ، فاشتملتْ هذه الكلماتُ على مراتبِ الوجودِ كلّها ، وأنه سبحانه هو معطيها بخلقِه وتعليمِه ، فهو الخالقُ المعلِّم ، وكلُّ شيءٍ في الخارجِ فبخلقِه وُجِدَ ، وكلُّ علْمٍ في الذهنِ فبتعليمِه حَصَلَ ، وكلُّ لفظٍ في اللسانِ أو خطٍّ في البَنانِ فبقُدرته وخَلْقِه وتعليمِه ، وهذا من آياتِ قدرتِه وبراهينِ حكمتِه ، لا إله إلاّ هو الرحمنُ الرحيمُ .

والمقصودُ أنّه سبحانه تعرّفَ إلى عباده بما علّمهم إياه بحكمتِه ، من

الخطِّ واللفظِ والمعنى ، فكان العلمُ أحدَ الأدلّةِ الدالّةِ عليه ، بل مِن أعظمِها وأظهرِها ، وكفى بهذا شرفًا وفضلاً له »[1] .

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٨) بتصرف يسيرٍ .